الفصل الثاني عشر

نشيد الثناء

أحبتي إخوتي ربنا سبحانه وتعالى موصوف بكل كمال وجلال وكل عظمة وكل كبرياء، وكلما عرفته أكثر عظم حبك له وخشيتك له، إن جلال الله وعظمته لا يملك مخلوق أن يصفها أو يثني عليه بها كما ينبغي لله، ومهما أثنى عليه الخلق أو شكروه، أو مدحوه وعظموه فإن عظمته أعلى وجلاله أكبر، ولن يوفيه الخلق كلهم، ولو اجتمعوا حق الثناء، قال أعلم الخلق بالله وأتقى وأخشى الخلق لله وأعبد البشر لرب البشر ذلكم رسول الله إمام المرسلين وسيد النبيين قال ﷺ «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك جل ثناؤك وتعالى جدك ولا إله غيرك»(١). ذلكم الله ربنا الحكم حكمه والفضل فضله، والبر بِرُّه، تمت نعمته وفاضت على أوليائه رحمته،وتعالت قدرته «ذلكم الله».

الحق ما أنزل والشرع ما فصله والسعيد من وفقه واصطفاه، والشقي من حرمه وأقصاه، الفائز من أحبه والخاسر من في النار أكبه، انظر إلى الإنسان كيف صوره الله؟!... انظر إلى الليل كيف محاه؟!... انظر إلى النهار كيف شق سناه؟!... انظر إلى الجبل كيف أرساه، انظر إلى الحق كيف بينه وجلاه؟!... وانظر إلى الباطل كيف أزهقه وأرداه؟!... وانظر إلى الكون من حولك فما أبهاه!! ما أعظم من خلق هذا الخلق وسواه «ذلكم الله».

---

(١) رواه مسلم برقم ٤٨٦، وأبو داود برقم ٨٤٢، من حديث أمنا عائشة رضي الله عنها.

سبحانه... دل الطفل لثدي أمه، وجعل حياة الثعبان في سمه، وأخرج اللبن صافيًا من بين فرث البهيم ودمه!! وكم كشف عن مغموم غمه،وعن مكروب كربه،كم قرب الغريب البعيد ورزق الوحوش في البيد، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فضله عميم وبطشه شديد «ذلكم الله».

من حاربه خذله... ومن خالف أمره أذله... ومن نازعه أخزاه... ومن نسيه أشقاه... من جاهد في سبيله هداه... من الذي دعاه فرده؟!... ومن الذي لجأ إليه فصده؟!... من ذا الذي جاء بدمعه بين يديه فأعرض عنه؟! من الذي فزع إليه في الملمات فقلاه، وأخزاه؟! «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله»؟!! « ذلكم الله» لا إله غيره ولا رب سواه.

مقاليد الملك بيده، مقادير كل شيء عنده، مفاتيح الأمور لديه، مصير العباد إليه، جل اسمه، وتقدس ذكره، عز شأنه، لمن تعنو الوجوه إذا لم تعنو لوجهه؟! لمن تسجد الرؤوس إذا لم تسجد له، الكبرياء رداؤه والعظمة إزاره، حجابه النور، قوله الحق، وعده الصدق، سبحان من أتته السماء والأرض طائعة، وخضعت الجبال لعظمته خاشعة ووكفت العيون عن ذكره دامعة، ترنم الرعد بتسبيحه، لمع البرق بتمجيده، شدا الطير بذكره هدل الحمام بشكره وكل خلقه خاضع لأمره «ذلكم الله»[1].

ماذا يقول مخلوق ضعيف في مدح من له كل الجمال وكل الكمال وكل الجلال؟ ماذا يقول من خلق من طين في وصف جلال رب العالمين وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين وخالق الخلق ورازقهم أجمعين؟!

---

(1) اقتبست أكثر هذه العبارات السابقة من كتاب«العظمة» للقرني.

إلهي... سيدي... ربي... كلَّ لساني عن شكرك وحمدك؛ فلك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

لك الحمد ربي عدد ما خلقت وبرأت.

لك الحمد بكل ما حمدت به نفسك، وبكل ما حمدك به الصالحون من خلقك.

لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد.

أنت أهل الثناء والمجد فامنن ... بجميل من الثناء المواتي

ما ثناني عليك إلا امتنان ... ومثال للأنعم الفائضات

يا محب الثناء والمدح إني من ... حيائي خواطري في شتات

ذابت النفس هيبة واحترامًا ... وتأبَّت عن بلع ريقي لهاتي

حبنا وامتداحنا ليس إلا ... ومضة منك يا عظيم الهبات

لو نظمنا قلائدًا من جُمان ... ومعانٍ خلابة بالمئات

لوبرينا الأشجار أقلام ... شُكر بمدادٍ من دجلة والفرات

لو نقشنا ثناءنا من دمانا ... أو بذلنا أرواحنا الغاليات

ما أبنا عن همسة من معان ... في حنايا نفوسنا ما كنات

أو أتينا لذرة من جلال ... أو شكرنا آلاءك الغامرات

أي شيء يقوله الشعر لما ... يتغنى بخالق الكائنات؟!

الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، سبحانه أضحك وأبكى، أمات وأحيا، أسعد وأشقى، أغنى وأقنى،وهو الملك العلي الأعلى«ذلكم الله».

هل خلق الخلق رب غيره؟! هل يرزق العباد رب سواه؟! هل يغيث المكروبين ويجيب المضطرين أحد إلا الله؟!

من الذي أنزل الكتاب وفصله؟! من الذي أبدع الخلق وصوره؟!، من الذي أظهر الحق وبينه؟! من الذي كبت كل ظالم وزلزله؟! «ذلكم الله».

ألا تحب من أسبغ عليك النعم، ودفع عنك النقم، وشفاك من السقم؟! ألا تحب من لطف بك فهداك لدينه، وزين الإيمان في قلبك؟! وقربك وطرد سواك؟!

إذا ضل العبد في الصحراء واشتد به التيه في البيداء، وإذا هاج البحر وماج، وتلاطمت السحب والأمواج وبارت الحيل وانقطعت السبل هتف العبد من أعماقه... يا الله يا الله.

إذا حل الكرب، واشتد الألم، إذا تفاقم البلاء ونزلت بالعبد البأساء والضراء هتف بلسان الطمع والرجاء... يا الله، سبحان الملك السميع العليم، البر التواب الرحيم الذي يجيب الدعوة عند الاضطرار ويكشف المحنة عند الافتقار ويغفر الزلة عند الذلة والاستغفار، ويرحم الضعف عند المسكنة والانكسار،وينقذ الغريق من لجج البحار،ويحيي الأرض الميتة بغيث الأمطار،ويمح الليل بالنهار، ليتذكر أولو الأبصار، ويعتبر أولو الألباب والأبرار.

إلهي.. كيف أخذل وأنت ناصري؟ كيف أضل وأنت ربي؟ كيف يذل من كان لك ولي، كيف يستوحش من كان لك محب؟! كيف يخاف من مخلوق من امتلأ قلبه بخشيتك؟! كيف يرائي الناس من ارتوى قلبه بمعرفة عظمتك؟!

سبحانك سبحانك ولا تقال إلا لك،ولا يمدح بها سواك، إلهي إذا أسكتني عن التوبة عظيم جرمي، أنطقني بها عظيم عفوك، إن أقعدتني عن الخير نفسي أقامني إليها

طمعي في برك وإحسانك وعفوك وغفرانك، أعوذ بك من رياء وسمعة،ومن عمل لا يراد به وجهك الكريم، عميت عين لا تراك عليها رقيبا، خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا.

ربنا أعطيتنا ما لا نطيق شكره فلك الحمد، رب أتمم علينا النعمة واغفر الخطية، وأحينا حياة مرضية، وتوفنا وفاة سوية رب ألهمنا الحجة، وثبتنا على المحجة، وأدرأ عنا الكوارث، واحمنا من الحوادث، ورد عنا كيد الشياطين بمدد من جندك مسومين، والحمد لله رب العالمين.

مليك قدير لا يرد قضاؤه ... حكيم عليم نافذ الأمر قاهر
عنى كل ذي عز لعزة وجهه ... فكم من عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت ... لعزة ذي العرش الملوك الجبابر

يقول القرني حفظه الله:

وتصدعت شُم الجبال لبأسه ... والطلع خوفا شُقَّ من عيدانه
وتفتح الزهر الندى بصنعه ... يزهو بالتسبيح في بستانه
والحوت قدسه بأجل نغمة ... لغة تبرز الحسن من سبحانه
حتى الضفادع في الغدير ترنمت ... بفوائد التقديس في غدرانه
هذى النجوم عرائس في محفل ... تملى حديث الحب في سلطانه
الشمس تسجد تحت عرش إلهنا ... والبدر رمز الحسن في أكوانه
والهدهد احتمل الرسالة غاضبًا ... يدعو إلى التوحيد من إيمانه

غـضبًا عـلى بلقـيس تعبـد شمـسها فـسعى لنـسف الملـك مـن أركانـه
لـولاه نـوح مـا نجـا يـوم الـردى في فلكـه المـشحون مـن طوفانـه
لمـا دعـاه يـونس لبـاه في قـاع البحـار يـضج في حيتانـه

سبحانك عن كل عيب تنزهت، وعن كل نقص تقدست، لو أن الأقلام هي الشجر والمداد هو المطر، والكتبة هم كل البشر، ثم أثنى عليه بالمدح كل من شكر لما بلغوا ذرة، مما يستحقه جل في علاه وقهر، سبحانه ...عظمت بركاته، حسنت صفاته، بهرت آياته، أعجزت بيناته، أفحمت معجزاته، جلت أسماؤه، عمت آلاؤه، امتلأت بحمده وتقديسه أرضه وسماؤه، وكثرت على عباده نعماؤه، ما أحسن قيله، وما أجمل تفصيله، وما أبهى تنزيله، ما أسرع تسهيله، ليس إلا الخضوع له وسيلة، فمن انتصر به ما ذل، ومن اهتدى به ما ضل، ومن اتقاه ما ذل، له الكبرياء والجبروت عز وجل[1].

قال ابن الجوزي عليه رحمة الله "سبحانه من أقام من كل موجود دليلًا على عزته، ونصب علم الهدى على باب حجته، الأكوان كلها تنطق بالدليل على وحدانيته، وكل موافق ومخالف يمشي تحت مشيئته، إن رفعت بصر الفكر ترى دائرة الفلك في قبضته وتبصر شمس النهار وبدر الدجى يجريان في بحر قدرته، والكواكب قد اصطفت كالمواكب على مثاكب تسخير سطوته، فمنها رجوم للشياطين ترميهم فترميهم عن حمى حمايته، ومنها سطور في المهامة يقرؤها المسافر في سفر سفرته، وإن خفضت البصر رأيت الأرض ممسكة بحكمة حكمته، كل قطر منها في سفر سفرته، كل قطر منها محروس بأطواره عن حركته، فإذا ضحت عطاءها ثار السحاب من بركة بركته، ونفخ

(١) «مقامات القرني» للدكتور عائض القرني، (ص:٤٨-٤٩) بتصرف.

في صور الرعد لإحياء صور النبات من حفرته، فيبدو نور النور يهتز طربًا بشرى بين يدي رحمته، فإذا استوى على سوقه زادت في سوقه ألطاف نعمته، فيرفل في حلى حلل الحال الحالية إلى معبر عبرته، والأشجار معتقة ومفترقة على مقدار إرادته، صنوان وغير صنوان، هذا بعض صنعته، ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ (الرعد: ١٣)[1].

(١) «المدهش» (١٢٠-١٢١).

obeikandl.com